(١٢)

الفضيلة أساس الحياة*

ترى كم إنسانا رجع إلى الله سبحانه وتعالى على أثر زلـزال الاثنـين ١١ أكتوبر ١٩٩٢م؟ الحقيقة أننا نحن المؤمنين بالله تعالى لم نتحرك ولم نرتد ، الحقيقة لأننا نحن المؤمنين بالله لا يمكـن أن يضعـف إيماننـا بـه أبـدا لأن الواحد منا يولد بالإيمان بالله فـى كيانـه وإن كـان يخيـل إلينـا أن إيماننـا بالله يضعف أحيانا وهذا غير ممكن ، لأن الواحـد منـا يولـد وإيمانـه بـالله جزء من كيانه ، ونحن المصريـين بـالذات لا يقـع فـى حياتنـا شىء علـى الإطلاق خارج الإيمان بالله تعالى ، وإن كان تصرف الكثير منا ينطـوى فـى أحيان كثيرة جدا على مخالفات لأوامر الله.

وإن كانت المخالفات هنا تجرى لبعض القواعد الأخلاقية أما الكفر بـالله فأنا شخصيا لم أر فى حياتى فى مصر كافرا واحدا ، ونحـن أحيانـا نـرى تصرف إنسان قليل الخلق ، ونقول: قليل الإيمـان وأنـا لا أعـرف إن كـان ذلك ممكنا أى إن كان من الممكن أن يضعف إيمان إنسان حتى يكـون علـى حافة الكفر وأنا أرى أن ذلك ممكن ولا أدرى كيف يكون عقابه وأذكر أننى كنت ذات مرة مدرسا فى مدرسة ابتدائية فى بلدة من بلاد الريف واحتجنا إلى إصلاح المدرسة ، ولكن الوزارة لم تلق إلينا بالا فـإن عندهـا المئـات مـن هـذه المآسـى ، فجمعنـا مـن الأولاد بعـض المـال لتصلـح لهـم مدرسـتهم واختارونى مندوبا لقيادة الإصلاح ونصحونى بأن أقصد مقاولا معينا فذهبت إليه مع نفر من زملائى فلما دخلنـا عليـه أكرمنـا الرجـل إكرامـا عظيمـا ، وكانت المقاولة كلها متواضعة ، ولكن المقـاول قـدم لنـا أثنـاء الاتفـاق علـى العملية هدايا متواضعة فقلت له هذه هدايا لنا؟ فقـال هـذه عادتنـا مـع كـل عملائنا فقلت له اسمع يـا أخـى إن هـذه الهدايـا رشـاوى ونحـن لا نقبـل

---

* نشرت هذه المقالة فى ٢٥ أكتوبر ١٩٩٢م

الرشاوى ، والمبلغ الذى تأتيك به الآن بسيط والمسألة كلها معاونة للأولاد، فماذا يحدث فى الدنيا لو خفضت المبلغ الذى تطالب به إلى النصف واعتبرت الموضوع كله معاونة للمدرسة أم هل من الضرورى أن تكسب فى كل مقاولة تقوم بها أليس عندك شيء لله؟.. فأنصت الرجل إلى ولم يتكلم وتمت العملية بسعر مخفض جدا ، وقال أحد زملائى فيما بعد ألا ترى إن هذا الرجل مرتش وإننا لابد أن ندخله السجن فقلت له ومن نحن يا أخى؟ إننا مدرسة ابتدائية صغيرة وهذه القضايا التى تتحدث عنها تحتاج إلى نفقات ووقت لقد أنقذنا مدرستنا ولن ينسى الله هذا المجرم أبدا فلندعه لغيرنا وتأكد أن الله لن يترك مجرما دون عقاب.

والحقيقة أن الخط الفاصل بين الحلال والحرام بين الخير والشر ليس واضحا فى حياة البشر وذلك يرجع إلى أن الإنسان يعتمد فى أعماله على عقله ، ولا يعتمد على العقل من مخلوقات الله إلا الإنسان ، لأنه الوحيد الذى له عقل يعتمد عليه أما بقية الحيوان فيتصرف دائما حسب الغريزة ويندر أن نجد حيوانا «ظالما» أو شريرا فكل أعمال تصدر عن غريزته وحتى الحيوانات التى توصف بأنها مفترسة لا يمكن أن تفترس إلا فى حالات الجوع ، وهى لا تعرف الظلم فى أعمالها ، أما الإنسان فهو مسئول عن أعماله، وهذه المسئولية هى الثمن الذى يؤديه الإنسان الذى يمنحه الله العقل وهو نعمة كبرى ، ولهذا فإننا كبشر لابد أن نضع هذه المسئولية دائما فى اعتبارنا ، ونحن عندنا قانون نقيس به أعمالنا لأن الله سيحاسبنا عليها كلها ، وهذا مظهر من مظاهر الدين ، فنحن المسلمين لدينا فى القرآن الكريم قانون أخلاقى محكم، ونحن سواء أكانت معرفتنا بالقرآن الكريم معرفة حفظ وإدراك شامل أو إلمام عام سنحاسب على أساس ذلك القانون بعد أن نموت، وكل منا لهذا لابد أن يكون له قانون أخلاقى يراعيه فى كل تصرفاته ، وبعض الناس يعتقدون أن ذلك عسير ، ولكنى أقول لك إنك إذا كنت مدركا إدراكا حقيقيا لقانونك الأخلاقى كما يرد فى

كتابك المقدس سواء كان القرآن الكريم أو الانجيل أو التوراة ، وكلها متقاربة فإنه يجتهد دائما فى التزام هذا القانون ، ولكنه يخدع نفسه ، ولهذا فإن الإنسان يخطئ فى الحساب فى هذه الناحية ، ويغيب عليك إن كان ما صنعته حلالا أم حراما ، ومن هنا فإننى أنصحك أن تدقق جدا فى الحكم على أعمالك حتى تعرف دائما أين أنت وخير من يحكم على الإنسان هو نفسه ، ولهذا فإننى أعتقد أن الإنسان خير من يحكم على أعماله ولهذا فإننى أرى أن الواحد منا لابد أن يكون حكما على أعماله ولا ينتظر حتى يرى الناس أعماله ويحكمون عليها وهذه عادة أى أن الإنسان ينبغى أن يعود نفسه النظر فى أعماله والحكم عليها وإذا وجد الإنسان أنه أخطأ فعليه أن يعترف بخطئه ولو بينه وبين نفسه ، ويجتهد فى إصلاح ذلك الخطأ ، ولولا ذلك لساء حال الدنيا.

ذلك أن حياة الإنسان وأعماله ينبغى أن تسير وفقا لقانون أخلاقى واضح ولا يجوز للإنسان أن يتساهل فى ذلك القانون أو يظن أن الناس إذا لم يعرفوا خطأه فإنه ينجو من العقاب مع أنه من المؤكد أن الإنسان لابد أن يدفع ثمن كل مخالفة قانونية يرتكبها ، وفى القرآن الكريم والحديث الشريف يرى الإنسان أكثر من مرة أنه لا يمكن أن ينجو من العقاب على خطأ يقع فيه ، فالمخطئ يمكن أن يخفى عمله عن الناس ، ولكنه لا يمكن أن يخفيه على الله سبحانه وتعالى مهما أخفاه ، ولا توجد هناك أخطاء صغيرة وأخطاء كبيرة ، وحتى لو تصور الإنسان أنه نجح فى إخفاء ضرره على الناس فإنه طبعا لن يستطيع أن يخفى الخطأ على الله ولابد أن ينال عقابه وحتى لو نجح هو فى الفرار من العقاب فإن أولاده أو أحفاده لابد أن ينالهم العقاب وأساس الحياة فى هذه الأرض هو الخير ، وذلك واضح جدا عندنا فى الإسلام والمسيحية واليهودية.

ومن الخطأ أن يظن إنسان أنه يستطيع خداع الإنسانية ويقترف الأخطاء فى حق الأرض والبشر ويظل ذلك مختفيا إلى الأبد ، لأن الحقيقة هى أن

الحياة فى هذه الأرض شفافة ، ومهما ظن الإنسان أنه يستطيع خداع الإنسانية والبشر ولا يقف الناس على الحقيقة إلى الأبد ، فإن الحقيقة تظهر للناس لأن البشر فيهم شفافية ولابد أن يعرفوا الحقيقة فى يوم من الأيام ، حقيقة أن الناس لن يعرفوا الحقيقة كاملة فى وقت قصير لأن الناس إذا لم يعرفوا الحقيقة كاملة فى أقرب وقت فهم يشكون دائما فى المخطئ ، ويقع فى نفسهم الشك فيه فيظل المخطئ موضع شكهم دائما وإن ظن أنه يخفى عليهم الحقيقة ، وتصور أننا اليوم نكتشف حقائق مخطئين من أيام اليونان والرومان فهناك أباطرة رومان ورؤساء يونان اقترفوا جرائم ظنوا أنها تظل مختفية على البشر إلى الأبد ، ولكننا نحن اكتشفناها اليوم بعد مئات السنين وجدير بالذكر أننا كنا دائما شاكين فيهم لأن حياة البشر كما قلت لك شفافة وكنا دائما نشك فى أولئك المخطئين ونسىء الظن فيهم، ولهذا فإننى أنصحك أن تكون دائما مستقيما وأن تحذر خداع البشر ولا ضير على الإنسان فى أن يخطئ دون قصد ، ونحن لا نغضب عندما يظهر ذلك الخداع فيما بعد ، ولكن المشكلة الحقيقية هى سوء النية وخداع البشر ، وقد نبهت الأديان كلها إلى ذلك وحذرت الإنسان من نفسه وأكدت له أن البشرية كانت تقف دائما على الحقيقة ، وكانت تسىء الظن بالمخطئ وتعامله على أنه خداع أو كذاب وعدو للإنسانية.

والأخلاق الحسنة كانت دائما أساس الحياة للإنسان والمصريون القدماء كتبوا فى أكثر من موضع من آثارهم يحضون الإنسان على التزام الفضائل وأذكر أننى قرأت فى أحد كتب حضارة مصر القديمة أنهم نبهوا إلى أن الأخلاق الكريمة أساسية وأثنوا على الصدق والإحسان وقالوا إن الإنسان إذا انصرف عن الفضائل فلابد أن يدفع الثمن فى يوم من الأيام وعن أهل مصر القديمة أخذت كل أمم العصور القديمة هذه الحكمة وشعراء العرب قبل الإسلام حضوا كثيرا على الفضائل ونصحوا الأغنياء بالإحسان إلى الفقراء ، ولهذا فإن فكرة الخير التى أتى بها الإسلام فى القرآن والحديث لم تكن

غريبة على العرب ، ويلاحظ أن خصوم رسول الله - ﷺ - لم ينكروا الإسلام نفسه ولا أنكروا فضائله وإنما كانت المسألة غيرة من رسول ﷺ .

ويلاحظ أن رجلا مثل أبى جهل كان يعادى محمدا - ﷺ - مدفوعا فى ذلك بالغيرة منه وإلى آخر لحظة من كلامه مع رسول الله - ﷺ - قبل هجرته إلى المدينة كان مهذبا معه وإن كان أنكر كل حرف أتى به ، ولكنه شعر بخوف حقيقى عندما نجح رسول الله ﷺ فى الهجرة إلى المدينة المنورة، لأنه توقع أن تنضم إليه الغالبية العظمى من أهل المدينة وأن يتطور الأمر بين البلدين - مكة والمدينة ، وقد نجح رسول الله - ﷺ - نجاحا عظيما فى المدينة وتحولت بسرعة إلى قاعدة الإسلام ، وأبو جهل ظن أنه يستطيع القضاء على الإسلام بالقوة العسكرية لأنه كان خائفا فعلا وتطورت الأحداث كما نعرف حتى انتهت إلى معركة بدر ، وكانت فى الواقع معركة بين أبى جهل والإسلام ، ورسول الله - ﷺ - لم يكن يكره عمرو بن هشام ، وهو أبو جهل ولا قبيلته بنى مخزوم لكنه يرثى لهم . وموقعه بدر فى الحقيقة كانت موقعة أبى جهل ، فإن نصف المعركة الأولى انقضى بنصر المسلمين وبقى أبو جهل فى الميدان ومعه غالبية قبيلته بنو مخزوم ، وقد ثبتت بنو مخزوم إلى جانب أبى جهل حتى قتل منهم نحو تسعة عشر رجلا فى الدفاع عنه ، وكان كل المسلمين حريصين على قتل أبى جهل ، وقد استطاع اثنان أخيرا قتله ، ويبلغ من حرص المسلمين على قتل أبى جهل أننا اليوم غير متأكدين من الذى قتله. ولكن الرجل يستحق كل هذا العداء من المسلمين فقد كان رجلا مبغضا لمحمد - ﷺ - منكرا للإسلام ، وهو يستحق ما أصابه لأنه كان رجلا غير فاضل فعلا.

إن من أجمل خصائص القرآن الكريم هى الوضوح والصراحة ، فالمسلم مطمئن لأنه يعرف أنه يؤمن بالحق ويطمئن به قلبه ولا يختلف فى شىء عن النصرانية واليهودية ، وفى القرآن آيات كثيرة جدا تؤكد ذلك وكان من

الممكن أن آتى بأمثلة كثيرة ، ولكنى أختار لك الآيات التالية من سورة البقرة وهى تقول: ﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون. قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾ (الآيات : ١٣٥ - ١٣٩).

وهذه آيات تتكرر جزئيا فى سورة أخرى ، وأنا أحبها لأنها واضحة وصريحة وهى تكشف للإنسان دون أدنى مجال للشك حقيقة الإيمان وتريح قلب الإنسان من هذه الناحية ، وبينما نجد بعض الأحبار فى الأديان الأخرى حاملين على الإسلام نجد أن هذه الآيات تقول لك إن دين الله واحد ، فكل الأديان السماوية منذ أن أنزل الإيمان على إبراهيم عليه السلام واحدة ، وهذا هو المعقول فإن الله سبحانه وتعالى واحد ومن ثم فإن دينه واحد، وأنا أقول هذا الكلام لإخوانى المتشددين فى إيمانهم الذين يقفون موقف العداء ممن يظنون أنهم كفار لمجرد أنهم يختلفون معهم فى صورة الإيمان وقد يدفعهم هذا العداء إلى العدوان على خصومهم ، وقد يقتلونهم مع أن مجرد التفكير فى العدوان على الخصم أو قتله يخرج الإنسان عن الإسلام وهذا هو الذى أريد أن أقوله هنا فقد ابتلينا فى السنوات الأخيرة بطائفة أو طوائف من المسلمين المتشددين الذين يقترفون جرائم القتل ظنا منهم أن الإيمان الصحيح يبيح لهم قتل خصومهم ، وقد نشروا فى البلد موجات من التعصب والعدوان والخوف ونشروا رعبا بين أصحاب الفكر والقلم ، وهذا لا يجوز ، ونحن المسلمين الذين نعرف حقيقة الإيمان فخورون بإسلامنا لتسامحه وبعده عن التصعب ، وأنا أعرف ذلك

من زمن طويل وقد دفعنى هذا التيار الظالم إلى قراءة السيرة النبوية لأرى موقف الرسول الكريم من خصومه.

ومن المعروف أن الرسول ﷺ كان متسامحا جدا مع خصومه لأنه كان يعرف أن الإسلام فى صميمه إيمان بالله سبحانه ، ولا يمكن أن يعادى الإيمان بالله إنسان ، وخصوم الإسلام كانوا فى الحقيقة يغارون من رسول الله ﷺ أو من قريش وبعد أن استقر فى المدينة ورأى إقبال أهلها على الإسلام اتجهت نيته إلى تحويل المدينة إلى أمة جيش لأنه وجد أن العرب مقبلون على الإسلام إقبالا شاملا ، وبعد معركة بدر أحس بقوة الإسلام ورسم خطته على تحويل جزيرة العرب إلى أمة إسلامية واحدة وجعلها قاعدة الإسلام ، وقد غزا رسول الله ﷺ بنفسه سبعا وعشرين غزوة ، وكان ما قاتل فيه بنفسه من المغازى تسع غزوات: بدر وأحد والمريسيع والخندق وقريظة وخيبر وفتح مكة وحنين والطائف ، أما سراياه التى أرسل بها تحت قيادة أصحابه فكانت سبعا وأربعين سرية ، والمهم عنده كان تمرين كل المسلمين على الجهاد ، لأن الجهاد يقوى النفس ويشد قوى الإنسان ومن الطريف أنه - ﷺ - لم يعرف العدوان أو الكراهية قط مع أنه لم يقاتل إلا كفار الوثنيين ، وإذا نحن درسنا السيرة وجدنا أنه كان هناك دائما أكثر من غزوة أو سرية فى الوقت نفسه ولكن خصومه كانوا دائما كفارا وثنيين يجىء إنسان اليوم ويعادى جماعات من المسلمين ويقتل منهم ويسمى هذا جهادا لأن الجهاد لا يكون إلا مع الكفار الذين يكرهون محمدا ﷺ ويعادون الإسلام لهذا السبب. فإذا أنت شككت فى إيمان إنسان فلا يجوز لك أن تعلن عليه الحرب لأنك لا تعرف حقيقة إيمانه فلتدعه لله سبحانه وتعالى ولتهتم بإيمانك أنت. وجدير بالذكر هنا أن رسول الله ﷺ كان حريصا جدا على ألا يعادى قوما ويعلن عليهم الحرب إلا إذا بدءوا هم بالعداوة وخافهم الرسول ، ونذكر هنا بصفة خاصة غزوة الرسول لبنى قينقاع ، وكانوا يهودا من سكان المدينة وقد غزاهم الرسول ﷺ يوم

السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهرا من مهاجره ، قال ابن سعد فى طبقاته وكانوا قوما من يهود حلفاء لعبد الله بن أبى سلول (كبير المنافقين) وكانوا أشجع يهود وكانوا صاغة فوادعوا الرسول - ﷺ - فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغى والحسد ونبذوا العهد والمرة ، فأنزل الله تبارك وتعالى فى سورة الأنفال الآية ٥٨ ﴿ إما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ فقال رسول الله - ﷺ -: أنا أخاف بنى قينقاع ، فسار إليهم بهذه الآية ، ومن المعروف أن الرسول انتصر عليهم. ولن أورد التفاصيل فإن الذى يهمنى هنا هو أن نرى كيف كان الرسول ﷺ حريصا على الحق فى كل علاقاته مع أعداء الإسلام.

المهم لدينا هنا هو أن نعرف أن أساس الحياة هو الحق وأن الإنسان إذا التزم الحق فلابد أن ينصره الله ونحن نعيش الآن فى زمان مضطرب لا يكاد الناس يعرفون فيه الخير من الشر ، وقد كثرت فى زماننا الأخطاء والمخالفات واضطربت الحياة ، وحياتنا تزداد كل يوم صعوبة حتى صار الناس يشك بعضهم فى بعض ويرمى بعضهم بعضا بالخيانة. وقد أصبحنا اليوم نرى الناس يتهم بعضهم بعضا بالسرقة. وحتى لو فرضنا أن المتهمين باللصوصية لصوصا فعلا ، فأنت لن تجدهم سعداء أبدا ، لأن الإنسان لا يكون سعيدا إلا بالفضيلة ، ونحن هنا نختلف عن أهل الغرب اختلافا أساسيا لأن أساس الحياة فى الغرب هو النجاح ، والنجاح عندهم هو الكسب ، ويستوى عندهم أن يكون الكسب حلالا أو حراما ، أما نحن فأساس الحياة عندنا هو الفضيلة ، أو ينبغى أن تكون ولهذا فلابد أن تكون حياتنا فاضلة ، ولا يجوز أن يرتكب الإنسان الخطأ ويظن أن الرذيلة يمكن أن تكون أساس السعادة ذلك لأن المال فى ذاته لا شىء وهو لايحلو ولايسعد به الإنسان إلا إذا كان حلالا ، ولا يمكن أن يكون الإنسان سعيدا.. وهو غير فاضل ، وإذا كان يرتكب السرقة أو الزنا وما إلى ذلك من الرذائل ، وأنا شخصيا لم أرتكب الرذيلة ولا أعرف طعمها ، ولكنى أقول لك إن الإنسان إذا أراد أن يكون سعيدا فلابد أن يكون فاضلا فإذا كنت فى

طريق غير سليم فإنك لابد أن تلتزم الفضيلة ولا يجوز لك أن تسير فى طريق الرذيلة ، وقد قلت لك إنك إذا لم تدفع ثمن الرذيلة فإن أولادك أو أحفادك سيؤدون ثمنها.

المهم أن تعرف أن الرذيلة لا يمكن أن تؤدى إلى سعادة ، وإلا فإن الحيوان الذى يعتمد على الغريزة يكون أسعد من الإنسان ، ولا يمكن أن تكون الرذيلة سبيلا من سبل السعادة الدائمة ، وحتى لو لم يبلغ الإنسان السعادة الكاملة إذا التزم الفضيلة فسيكون دائما هادئا مطمئنا وخاصة فى بلادنا نحن لأنها تختلف عن بلاد الغرب ، وأنت لا تدرى كميات المال التى ينجح فى جمعها أهل الغرب ، ولا تعرف أبدا معنى السعادة عندهم ولكنى أقول لك إن حياتنا تختلف فى طبيعتها عن طبيعة حياة الغرب ولا نستطيع أن نكون غربيين أبدا ، ولابد أن نلتزم فضائلنا المصرية والعربية والإسلامية بصورة عامة.